نشيد صباح عيد القيامة لباباي الجبلتي
(القرن ٧ - ٨)

من ملامح الموسيقى الفنية في تراتيل كنيسة المشرق الكلدانية
الأمس واليوم

باسم حنا بطرس

تمهيـــد :

أولا : تحدد العلوم الموسيقية (Musicology) الأنماط الفئوية للأعمال الموسيقية ، من حيث انتمائها المرحلي التاريخي ، وشكْلِ بنائها التركيبي ، ومقاماتها الأساسية المعتمدة فيها ، من الجانب النظري ، وكذلك تفصل بين وظائفها المجتمعية وانحدارها الطبقي . فصار لنا فيها موسيقى تنتمي الى العصر الثقافي الفلاني ، عصر النهضة مثلا ، وفي اخرى موسيقى شعبية مجهولة الأصول ، لما يعرف بـ (الفولكلور - Folklore) ، وفي غيرها موسيقى قوميّة ، وما إلى ذلك من أصناف .

وكثيرا ما (يحلـو) لمن يتثاقف بالمعرفة ، فيطلق المسمّيات على هذا النمـــط أو ذاك بشكل عشـــوائي ، وهو غيـــر ملم بذلك ، فيحصـــل الخلط والخلـل في التصنيف والمفاهيم .

الترتيل المسيحي الكلداني والسرياني المتوارث ، قدر تعلّق الأمر بثقافتنا المشرقية ، يحتوي على مثل هذه الأصناف ، ففيه الشعبي الفولكلوري ، وفيه التقليدي (الكلاسيكي) وفيه الاعمال المصنّفة بـ (الموسيقى الفنية - Art Music) ذات البناء التركيبي المؤسّس على البنى الانتقالية في السياقات المقامية المتغيرة ، التي برز في مدرستها علماء اعلام من الموسيقيين السريان ، مؤلّفين وملحّنين ، عرفهم تراثنا السرياني .

فمن قائل ، لأولئك المتشاقفين ، إن تراتيل كنيستنا المتوارثة هي بمجملها من (الفولكلور الشعبي) العتيق البالي ! ، لا يليق بنا نحن أبناء القرن العشرين الآفل تداولها ، بل ينبغي الخروج بأنماط معصرنة ، كما يتشدّقون ، لمواكبة (روح العصر والتطور - كذا!) .

ثانيـــا : لا أدري ، حقيقة إندفاعي ، برغبة تكاد تكون جامحة ، للكتابة في موضوع يرتبط بعمق تاريخي يربو أمده على ألف عام ؛ إنها علاقة التواصل التناقلية من مصدر

(الإلهام الموسيقي) لواحد من كبار أعلام الكنيسة ، بابـاي الجبلتي ، ذلكم (العالم المعلّم والاستاذ ، بل الموسيقار) ، بما تركه لنا من ثراء كبير ، يُشكّل كنوزا من العلوم والكتابات والتآليف، ومن التراتيل المركّبة على مستويات فنيّة رفيعة التي تُصنّف بـ (الموسيقى الفنية - Art Music) ، والتي صار إستماع الناس الى بعضها اليوم نادرا في كنيسة المشرق الكلدانية . وفي النصف الأول من القرن العشرين الجاري ، تمثّل على يد ثلّة من أعلامنا من موسيقيّي الكنيسة المعاصرين ، الذين شغفوا بموسيقية (بنية - Structure) الألحان التي وضعها الجبلتي ، وتناقلتها الأجيال المتعاقبة ، إثراءً لأجواء العبادة الكنسية بعبق هذه الألحان .

لقد تأسست هذه الرغبة عندي ، منذ صغري ، وأنا شاهد لأولئك الرجال ثُلّة أعلامنا الموسيقيين المعاصرين ، بحكم انتمائي وعلاقتي باربعة منهم : الشمّاسَيْن الإنجيليين الوالد (حنا بطرس) ، والعم (عزيز بطرس) وصديق العائلة (القس ، ثم المطران افرام بدي) ، ومن بعدهم ، بعد ما يربو على العقدين من رحيلهم ، جاء (الأب يوحنان جولاغ) ليحمل لواءها مجدّداً لترديدها ونشرها .. بحكم ما فُطروا عليه من نعمة الأذن الموسيقية المرهَفة ، والصوت الجميل (الآخذ بمجامع القلوب) حسب وصف العم الشماس عزيز لصوت المطران بدي !

تتأتى متابعتي هذه ، مجرّدة عن (العاطفة والمحسوبية) ، من واقع استقرائي الوثائق الموجودة ، من جانب ، والمشاهدة الحية ، المرتبطة بالموضوع ، الذي وقع اختياري عليه وهو (نشيد صباح القيامة : الأمس واليوم) وهو أحد الأعمال الفنية الكبيرة لـ (الجبلتي) .

مقدّمة :

بابـاي الجبلتي ، علمٌ من أعلام الكنيسة ، الموسيقار الكبير ، وأحد (أعلامنا الذين أثروا التراث الثقافي والموسيقي وخلّدوه) ، حظي بقسط كبير من اهتمام ثلّة من المهتمّين بالموسيقى الكنسية ، خلال القرن العشرين ، الذين شكّلوا نوعاً من فريق عمل ، صبّوا جُلّ عنايتهم على واحدة من أجمل التراتيل المنسوبة إلى باباي ، الخاصّة بموضوع قيامة يسوع ، التي تعرف بالكلدانية بـ (طاس ونحيث) ، فأخذوا يتباهون بترديدها ، ويفاخرون بها ، بكامل أجزائها اللحنية .

لم يألُ حنا بطرس جهداً في سبيل العمل على (مَوْسَقة) الخدمة الكنسية ، المتمثّلة بالترتيل المتوارث ، وبخاصة فيما له علاقة بالطقس الكنسي ، بقيامه بتدوين الكثير من التراث الطقسي الكنسي ، من بينه هذا العمل الفني الكبير ، وبمختلف الصياغات الفنية .

أيّ شيء يُصنَع للكرم ولم أصنعه لكرمي ؟!!

عملية موسقة ألحان الطقس الكنسي الكلداني :

كان لـ «حنّا بطرس» (١٨٩٦-١٩٥٨) مبادرات رائدة متفرّدة في حينه ، في العطاء الذي تميّز بـ (توظيف) معرفته وخبرته الثقافية ، ومداركه الموسيقية العلمية ، التي منحته قدرات فنية ضافية في الترتيل الكنسي ، والطقسي على وجه الخصوص . الأمر الذي دفعه لتوثيق ما أمكن توثيقه تدوينًا موسيقيا من الحان كنيسته المشرقية الكلدانية ، بأسلوب ما يعرف بـ (التدوين الموسيقي - التنويط ، كذا) ، فترك عند رحيله مجموعة من الأوراق والكتب المطبوعة والمخطوطة ، ضمن محتويات مكتبته التي آلت بعد رحيله إليّ شخصيًا ، فاجتمعت من بينها مدوّناته الموسيقية الكنسية .

إنّ ما لفت انتباهي ، بشكلٍ أثار لديّ الفضول ، أن وجدت في أوراقه هـذه ، اهتماما بارزا بالترتيلة المنسوبة الى (باباي الجبلتي) المعروفة بعنوان (طاس ونحيث) ، فترك أكثر من مدوّنة موسيقية لها ، منها بشكل المسوّدات والقصاصات ، وأخرى بالشكل البنائي المتكامل وبتعدد الأصوات .

ولعلّي ، في هذه المتابعة ، أسلّط الضوء على نموذج من مدوّناته ، أجده جديرا بالاهتمام ، أسلوبا علميا في تثبيت (البنية الموسيقية) للحن هذه الترتيلة ، التي يتطلّب تدوينها ، أولا ، معرفة وخبرة كبيرتين ، وأداؤها ، ثانيا ، إقتدارا ومعرفة بالمفاهيم الموسيقية الفنية ، وبخاصة الانتقالات المقامية ، إذ أنها ليست من السهولة بمكان ليتولى أداءها من ليست لديه المقدرة على ترديدها بالشكل الفني الموضوع ، لصعوبة بنائها اللحني وانتقالاتها النغمية داخل سياق المقام الأساس للّحن .

جلسات التناغم الإنشادي :

لقد كان ، في السابق ، دأبُ مرتّلي الكنيسة المُجيدين الإجتماع عند هذا المرتل أو ذاك ، للسمر المفعم بأداء التراتيل الكنسية ، فيستمع الجمع الى من كان بينهم أكثر إجادة ، ليتعلّموا ويصحّحوا ويقوّموا معرفتهم بها . فكانت تعلو أصواتهم عبر منافذ المكان ، وكأنك تستمع الى أصوات الملائكة وهي ترنّم للرب !

ما كانوا يفتأون مكرّرين الاجتماع واللقاء ، وما كانوا يبخلون على أنفسهم بالوقت في سبيل ذلك . فصار منهم شمامسة قديرون ، تشهد لهم كنيسة مسكنتا في الموصل ، حيث كان مقر البطريركية ، وهي صاحبة مدرسة طقسية مشهود لها ، بشكل خاص ، إلى جانب

الأحبار والقساوسة من حباهم اللّه بالصوت الرخيم والعلم الغزير والأداء الجميل المعبّر ، فشكّلوا بذلك (جماعة - Ensemble) إنشاد ديني رفيع المستوى ، متناغم في تناقل الأصوات ومنسّق في تبادل الأدوار ؛ إنها الأبّهة بكامل رونقها في زمن لم يكن (الكورال Coral) معروفا عندهم . فكانت هذه الـ (طاس ونحيث) واحدة من التراتيل الكبيرة التي يتباهون ، كما أسلفت ، بأدائها في المناسبات الدينية الكبرى .

عودة الى ترتيلة (طاس ونحيث ، المسمّاة بـ نشيد صباح القيامة) :

لا أذكر أني استمعت الى (صباح القيامة) مرتّلةً في كنيستنا العامرة (أم الأحزان) ببغداد ، وأنا ابن هذه الكنيسة وبغداد ، سوى استماعي إليها من أفواه الثلّة المذكورة .

ثم انقطعت أسماعي عن تلقيّها زمنا ليس بالقصير ، بعد رحيلهم تباعا . لكنّي بعد أكثر من ثلاثة عقود ، شاءت المصادفات أن أجد عند الأب يوحنان جولاغ ، إهتمامًا بتعليمها وإنشادها مع مجموعة شمامسة وجوقة مرتّلي كنيسة (الطاهرة) في الموصل ، أيام كان مسؤولاً فيها ، إذ حصلتُ على توثيق ثمين لمقطع الردّة منها ، اثناء قيامي بتسجيل وقائع قداس سبت النور للعام ١٩٨٤ ، فانتعشتْ نفسي وترنّح وجداني نشوةً في سماعها مجدداً . كما وجدتُ عنده ، وهو يسعى إلى نشرها مجدداً ، مقدرةً متميّزة في ترجمة نصوص التراتيل الكلدانية الى العربية ، ببنية شعرية موسيقية . فكان معلّمًا قديرا لجوقته وشمامسته ، ومرتلاً ومردداً مُجيداً لها ولغيرها من الطقسيات ..

النصوص المترجمة الى اللغة العربية :

يقول النص كلداني الأصل :

(١)	(٢)
طاس وَنْحيثْ ريشْ	وْعَكيّل كيبا
مالاخي من شْمَي شْمَيّا	من قَورْا بْشَهْرا رَبّا
كَدْ لْويشْ هدْرَا	ولْناطوري
وإيقَارا مالاخايا	أقيمْ وا بْذِخْلا وْزَوْعا

ثم ، جاء زمن نقلها إلى اللغة العربية ، فصار لها بضعة نصوص مترجمة إليها ، سعيًا من المترجمين أنفسهم لايصالها إلى القارىء والمرتل والمستمع العربي ، تدوينًا توثيقيًا وأداءً ونشراً .

النموذج الأول (يعود إلى أواسط الخمسينيات) :

نص ترجمتها من قِبلَ حنا بطرس :

هبط رئيس الملائكة مرفرفاً من أعلى السماوات
لابساً حُلّة الجلال والوقار الملائكية
فدحرج الصخرة عن القبر بمعجزة باهرة .
أمّا الحرّاس فقد استولى عليهم الخوف والذهول
ولما رأى النسوة اللواتي أتين الى القبر ،
قال لهن : لا تخفنَ ؛
لأن سيّدنا قام من القبر منتصراً كما وعد ،
وارتفع بمجد عظيم الى الساكن في الأعالي.
اقتربْنَ وانظرن الى المكان الذي وُضع فيه جسده الطاهر
وها هي ذي الأكفان موضوعة هنا
لتكون شاهدة لقيامته مدى الأجيال .
ثم غاب الملاك .

فظهر يسوع لمريم المجدلية ،
ولما رأته ظنته حارس البستان ،
فقالت له :
هلمّ أيها البستاني وأرني ذاك الذي جئت في طلبه
وهو الذي ألهب قلبي بنار محبته .
فأجابها المخلّص في الحال قائلا :
يا مريم ، ها أنا ذا ابن أبي المراحم
مبارك هو الرب الذي برغبته كمل هذا الحادث
وبإكماله تم فعلاً سرّ الخلاص
مبارك ذاك الذي قام من بين الأموات بسلطانه
وأعطى الغلبة للطبيعة الآدمية الضعيفة ..
فله المجد والتسبيح من جميع الأفواه والألسن
وعلينا مراحمه وتحننه إلى أبد الدهور .

أما ترجمة الأب يوحنان جولاغ لها ، فقد صيغت للمرة الأولى بالشكل الآتي :

إنحدر ملاك من السماء
منظره يشع منه سناء
وانفتح القبر بأمر العلاء
والحراس أوقعهم في البلاء

وطمأن بقوله للنساء
قام الرب كما قال الأنبياء
ممَجّدا لم يمسّسه الفناء
أكفانه مطوّية باعتناء

وألحقها الأب جولاغ ، بتعديل ، وذيّلها بهامش عند نشرها تحت عنوان : (بشرى القيامة) في مجلتنا الرصينة (نجم المشرق العدد ٩ ، ص ٦٠) : جاء فيه (مترجمة بتصرّف لحفظ الوزن والترتيل ، كل سطر مكوّن من احد عشر مقطعا ، حسب إيقاعها النغمي) :

ملاك الرب نزل من السماء
منظره يشعّ منه السناء
وفتح القبر بعجب عُجاب
والحرّاس أوقعهم في ارتعاب

ومرّة اخرى قام الأب جولاغ بنشرها معدّلة تحت عنوان (يا بستاني) ، في مجلة (نجم المشرق العدد ١٣، ص ٥٤) ، التي قال فيها : (ابيات مختارة ومترجمة بتصرّف لحفظ الوزن واللحن) ومطلعها :

يا بستاني ، غنّاء فردوسك
فيه قبر ، بخدر مزدان
القبر عليه الحَراس ، وحول الخدر ملائك
هنيئا لمريم ، ظننتك البستانيَ ..

لعلّي انتهزها فرصة ملائمة في هذا المجال ، متمنيًا على الأب جولاغ ، الإبقاء على النص الأول لترجمته ، واعتماده بدلاً من النصّين اللاحقين ، لتطابقه موسيقيا مع اللحن الأصلي للترتيلة بشكل أفضل .

إننا نطمح إلى نشر هذه الترتيلة وترديدها في عموم كنائسنا الكلدانية في عيد القيامة المجيد ..! فهل يُتاح لنا ذلك ؟

نموذج حنا بطرس في الكتابة الموسيقية البوليفونية :

في قراءة لنموذج التدوين الموسيقي للحن (طاس ونحيث) للمرحوم حنّا بطرس ، المعروض هنا مع الموضوع ، نجده موضوعًا بصيغة (التأليف الموسيقي متعدّد الأصوات) بما يعرف موسيقيا بـ (البوليفونية - Polyphony) ، فللمقطع الاول منه ، الذي يشكل (المقدمة الموسيقية - Prelude) ، هو عبارة عن تمهيد إسترسالي بلا إيقاع ، وفيه تبرز براعة المؤدّي (المنفرد Solo) ، كما فعل المطران بدي بصوته الجميل العذب ، في تسجيلاته على الأسطوانات الفونوغرافية وأشرطة الكاسيت التي قام بإنتاجها في ألمانيا . وهذه المقدمة تتحدث ، بشكل درامي ، عن قصة قيامة الرب بعد صلبه وموته . يلي ذلك ما يعرف بـ (الردّة) التي تُترجم الحوار بين البستاني ومريم المجدلية ، كما وجدناها في نصوص الترجمة العربية .

لقد كان حنا بطرس طامحا الى إنجاز وتقديم العمل بالأصوات المتعددة من أفواه المنشدين في كورال كبير بمصاحبة الفرقة الموسيقية الكبيرة ، الفرقة السمفونية ، كفصل من فَصول (أوراتوريو آدم الثاني - Oratorio Adam the Second) الذي شرع في كتابة فصول منه ، لكن رحيله المبكر حال دون تحقيق طموحه ذاك .

مدوّنة لحن نشيد القيامة لباباي الجبلتي ، بخط الشمّاس حنّا بطرس ، تعود لعام ١٩٥٤
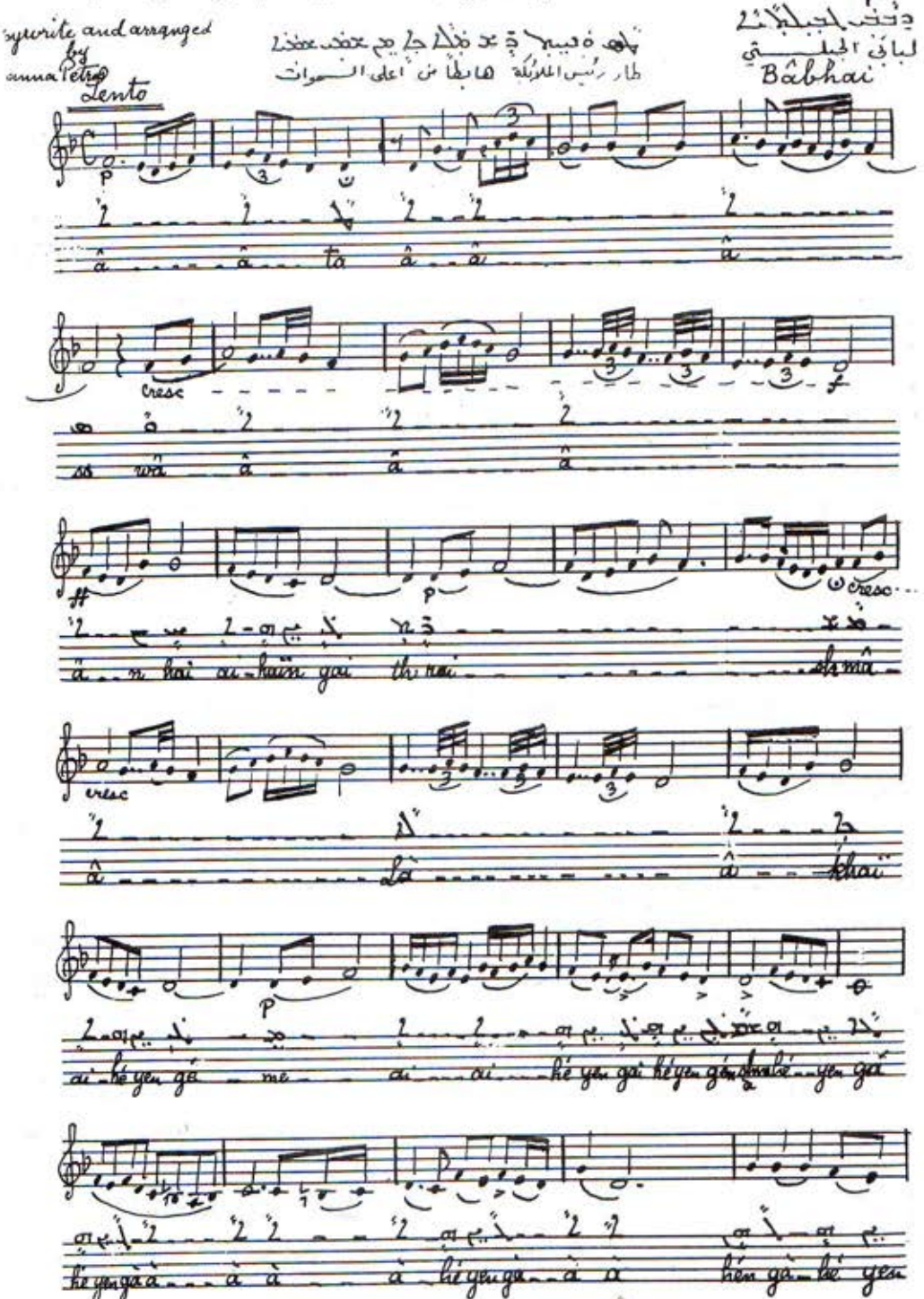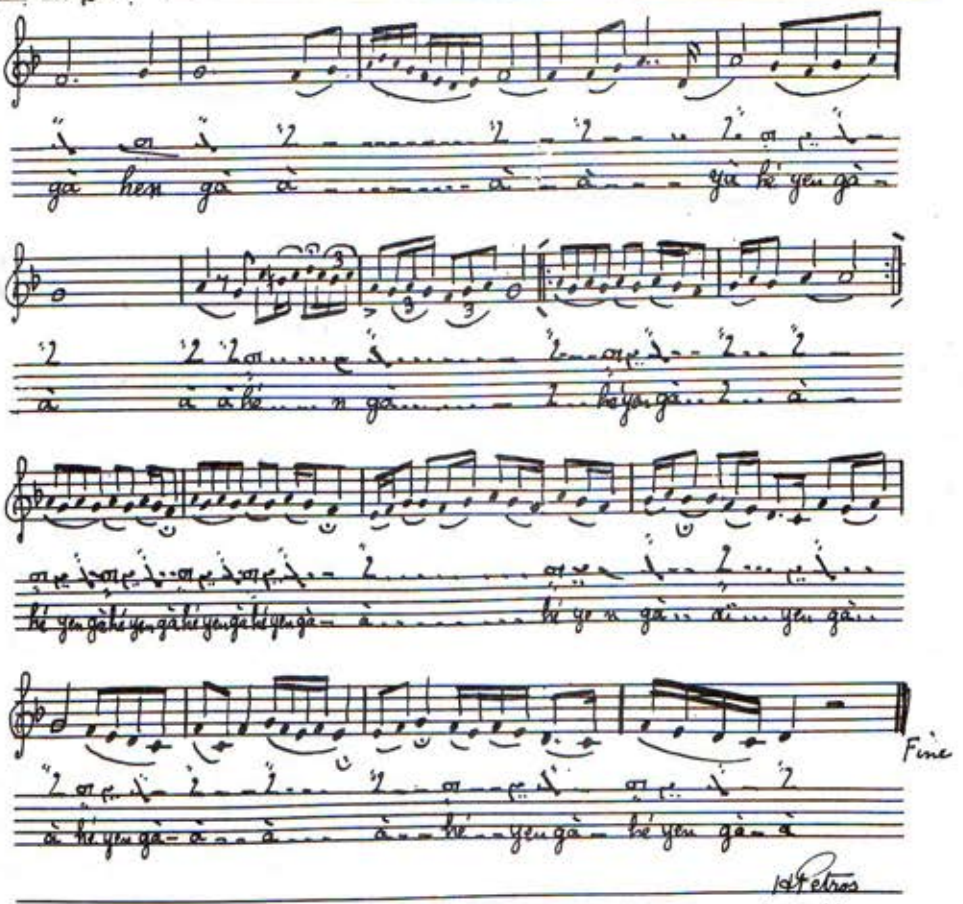
مسك الختام ...

همسة أوصلها الى أسماع كل من له غَيرة على تراثه الثقافي العريق ، قبل أن يأتي الزمن على ما بقي لدينا من كنوز هذا التراث الغني ، بأن آن الأوان ، إن لم يكن قد فاتنا ، بأن يُصار الى توثيق ما يُمكن توثيقه من ذلك الخزين ، ونعيد ما أمكن إعادته من صَدْحٍ يُنعش أسماعنا بالتلاحين الرائعة التي تركها لنا السلف الصالح ، ونحن نعيش احتفالاتنا المسكونية باليوبيل الكبير ، لنُسهم في هذا الاحتفال ، وننقل بأمانة تراثنا الى الألف الميلادي الثالث .

وهمستي هذه أجددها الى اسماع السادة المسؤولين عن معاهدنا الإكليريكية ، لإيلاء الموضوع العناية المقتضية لتعريف التلاميذ النجباء ما عليهم ان يقوموا به في مستقبل حياتهم الكهنوتية في الحفاظ على التراث ونشره مجددا . فالتراث ما كان قطّ عتيقًا باليا .

أللهمّ إني قد ذكّرتُ ، فعسى أن تنفع الذكرى !!